الأهرام

المصدر :

التاريخ :

الافتتاحية

الاتفاق الفلسطينى - الاسرائيلى !

فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الثالث عشر من سبتمبر ١٩٩٣ وفى احتفال كبير بمقر الرئيس الامريكى فى واشنطن ، وقعت اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية « اعلان المبادىء لترتيبات الحكم الذاتى الفلسطينى » . ووفقا لما جاء فى مقدمة الاعلان فان حكومة اسرائيل والوفد الفلسطينى لمؤتمر السلام فى الشرق الأوسط ممثلا للشعب الفلسطينى واقفا ... « على انه قد حان الوقت لوضع حد لعقود المواجهة والنزاع ، وتبادل الاعتراف بحقوقهم الشرعية والسياسية ، وليكافحوا للعيش فى سلام وتعايش ، وبكرامة وأمن متبادل ، وليحققوا تسوية سلمية عادلة ، دائمة وشاملة ، ومصالحة تاريخية » . وبعد توقيع الاتفاق ، صافح الرئيس ياسر عرفات رئيس الوزراء الاسرائيلى اسحق رابين أمام ثلاثة آلاف مدعو ومئات الملايين من المشاهدين فى أرجاء الأرض . وطويت بأحداث ذلك اليوم الحافل ، صفحة فى تاريخ الشرق الأوسط والعالم العربى ، لتبدأ صفحة جديدة لا تقل صعوبة ومشقة ، على الطريق الطويل لتسوية الصراع العربى الاسرائيلى ، وفى القلب منه القضية الفلسطينية . غير ان كثيرين - فلسطينيين وعربا آخرين - رأوا فى الاتفاق مثالب عديدة :

- فالاتفاق - اولا - قبول نهائى ، باسرائيل ، واقرار بشرعية احتلالها لفلسطين وتنى نهائى لفلسطين العربية .

- والاتفاق - ثانيا - لا يعطى الطرف الفلسطينى الا اقل القليل ، ويتجاهل كافة القضايا الاساسية ، وفى مقدمتها : مصير لاجئى عام ١٩٤٨ ووضع مدينة القدس ، والمستوطنات الاسرائيلية فى الضفة وغزة ، وذلك نتيجة لطبيعة توازن القوى المختل بشدة لصالح اسرائيل ازاء الفلسطينيين !

- والاتفاق - ثالثا - لن يؤدى فى المستقبل الى ايجاد كيان فلسطينى مستقل ، ولكن سوف يؤدى الى كيان هزيل تابع ، منقوص السيادة . وليست هناك ضمانات او التزامات ، بالا تكون غزة اريحا اولا ، هى غزة اريحا اخيرا !

- والاتفاق - رابعا - يتجاهل الربط المستقبلى بين الاردن والدولة الفلسطينية المنشودة ولكن يتجه - على العكس - الى الربط بين اسرائيل وكيان فلسطينى تابع ، منقوص السيادة .

- والاتفاق - خامسا - بتلك المثالب سوف يؤدى بالضرورة ليس فقط الى الغاء الانتفاضة الفلسطينية وانما سوف يؤدى ايضا الى صراع فلسطينى - فلسطينى ، وربما ايضا صراع عربى - عربى ، خاصة وانه اتى كحل جزئى ، وليس فى سياق حل شامل للصراع العربى مع اسرائيل .

- وأخيرا ، ومن الناحية الاجرائية فان رافضى الاتفاق يرونه من حيث اجراءاته ، والياته الوصول اليه ، مفتقد ليس فقط للشرعية الفلسطينية ، والشرعية العربية ، وانما هو ايضا مفتقد للشرعية الدولية ، لانه اقصر من كثير مما سلمت به عديد من القرارات الدولية للفلسطينيين .

ولا شك ان كثيرا من تلك الانتقادات لها وجاهتها ، وان هناك فجوة كبيرة بين ما تم فى الاتفاق ، وبين الطموحات الواسعة الفلسطينية - والعربية عموما - حول مآل القضية الفلسطينية ، وتحقيق الآمال المشروعة للشعب الفلسطينى ، فى تقرير مصيره ، واقامة دولته المستقلة فوق ارضه . ومع ذلك يمكن القول ان روح تلك الانتقادات ومنطلقها العام ، يتسم بنوايا حسنة أو ضعف لا يمكن تجاهلها .

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

- فمنطلق هذه الانتقادات يتسم - اولا - بالخلط بين « الامنيات والاحلام » وبين « الواقع » ، وعدم التفرقة بين الرؤى الذاتية والرؤى الموضوعية . فلا يكفى ان نعتقد نحن كعرب وكفلسطينيين ان وجود اسرائيل فوق ارض فلسطين هو امر غير مشروع ، لكى نعتبر ذلك حقيقة محققة ! لان الواقع عكس ذلك ، وهو ان غالبية بلاد العالم ، تعترف باسرائيل ، وتتعامل معها ، ولذلك ، فعندما وقف ياسر عرفات واسحق رابين ، معا ، امام العالم كله فى ١٣ سبتمبر الماضى ، فان الذى كان قد كسب « جديدا » فى هذا الموقف هو عرفات ، اما رابين فلم يكسب شيئا - من منظور الاعتراف والقبول الدولى .

- ومنطلق هذه الانتقادات يتسم - ثانيا - بنظرة استاتيكية جامدة ، لا تتفق مع طبيعة الاشياء فقط ولكنها تفتقد - فى جوهرها - الى الثقة بالنفس ! فهى تنظر الى الاتفاق على انه نهاية المطاف ، وتتجاهل حقيقة ان ما يترتب من تداعيات وتراكمات نتيجة تنفيذ الاتفاق ، والسير على طريقه ، يمكن ان ترتب واقائع ومعطيات جديدة . وهذه التراكمات والتداعيات الجديدة ليست بالضرورة فى صالح الاسرائيليين ، ولكنها يمكن - بل وينبغى ان تكون - فى مصلحة الفلسطينيين والعرب . والامر يعتمد - فى النهاية - على جهد كل طرف ، ووعيه باهدافه . ولذلك ، فان التسليم بان ما يحدث هو بالضرورة لصالح اسرائيل ، وان ما سوف يتم الحصول عليه هو (غزة واريحا - اخيرا) انما ينطوى على اعتقاد بعجز فريد يتمتع به العرب عموما ، والفلسطينيون خصوصا . وهذه - على ما نعتقد ، وندعو - فكرة خاطئة !

- وهذه الانتقادات تتسم - ثالثا - بنظرة جزئية محدودة ، عندما لا تستند فى ادراكها لتوازن القوى بين اسرائيل والعرب ، سوى الى القوة العسكرية بالمعنى الضيق للكلمة ، ولا تدرك عناصر القوة الشاملة لكل طرف . فمن الطبيعى ان ينظر الفلسطينى (او اللبنانى ، او الاردنى) الى اسرائيل نظرة ملؤها الخوف والترقب ، ان هو اقتصر على حقيقة التوازن « العسكرى » بين بلده ، وبين اسرائيل . ولكن النظرة سوف تختلف بالقطع ، ان هو نظر الى اسرائيل كدولة صغيرة وسط محيط عربى هائل ، ومن منظور التوازن الاقتصادى والسياسى والثقافى والحضارى وليس فقط منظور التوازن « العسكرى » الضيق . حقا ، ان العرب الآن مشتتون بل وربما متناقضون - فى مواجهة اسرائيل ، ولكن ذلك ليس بالضرورة قدرهم المحتوم ، بل ان اسرائيل نفسها تتعامل - على المستوى الاستراتيجى - مع العرب كقوة واحدة فى التحليل الاخير ، حتى وان تعاملت معهم - تكتيكيا - كقوى متجزأة .

من هذا المنظور ، ومع التسليم بالكثير من المثالب التى تضمنها الاتفاق ، وقصوره عن الوفاء العاجل بكثير من الامال الفلسطينية والعربية التى طال انتظارها ، فلا يمكن انكار ان توابع هذا الاتفاق انطوى على مكاسب اساسية لا يمكن تجاهلها :

- فهذا الاتفاق - ارتبط - اكثر من اى خطوة سابقة فى تاريخ القضية بتوفير الشرط الدولى لايجاد الدولة الفلسطينية . فهذا الشرط الدولى ، هو - فى حقيقة الامر - ما افتقدت الحركة الوطنية الفلسطينية منذ عام ١٩٤٨ ، لان ارادة الدول المهيمنة على المنطقة - والعالم - فى ذلك الوقت (وهى بريطانيا وفرنسا) اتجهت الى خلق دولة « يهودية » وليس دولة عربية فى فلسطين . وطوال العقود الاربعة الماضية ، نهج الفلسطينيون - وبيدا وبيدا - فى تكوين الاعتراف الدولى بحقهم فى هوية وطنية مستقلة . ولا يقصد بهذا الشرط الدولى مجرد اعتراف « المنظمات الدولية » ولا غالبية دول العالم ، وانما هو اعتراف القوى الكبرى ذات النفوذ والفاعلية على الساحة الدولية ، وهذه القوى هى الآن الولايات المتحدة وحلفائها فى اوربا (بما فيهم وروسيا !) .

- وهذا الاتفاق عكس اهم اعتراف اسرائيل بالهوية الفلسطينية ، وبالشعب الفلسطينى ، وبالكيان السياسى الممثل له ، اى منظمة التحرير الفلسطينية . حقا ، ان اسرائيل ما تزال بعيدة عن الاعتراف بالدولة الفلسطينية ، ومع ذلك فانها لم تطلب مثلا الغاء قرار اقامة الدولة الفلسطينية الذى سبق ان اطلقته المنظمة . ان جوهر هذا التغيير نفسى ومعنوى قبل ان يكون قانونيا او سياسيا ، وربما ليست هناك مسألة يمكن ان ينطبق عليها تعبير « كسر الحاجز النفسى » التى رامها الرئيس السادات ، مثل تلك المسألة ، اى : التسليم الاسرائيلى بالحقيقة الفلسطينية . وفى هذا السياق ، لا يمكن التقليل من مشاعر التوتر والقلق لدى الاسرائيليين ، مهما كانت الاعتبارات العملية التى ارغموا على التسليم بها .

- واخيرا ، فان هذا الاتفاق - على عكس ما يعتقد الكثيرون - هو الابن الشرعى للانتفاضة . وبعبارة اخرى ، فانه مثلما كان من الصعب على المصريين - بقيادة السادات - ان يقدموا على معاهدة السلام مع اسرائيل قبل ان يعبروا بحرب اكتوبر ، فقد كان من الصعب ايضا على الفلسطينيين ان يقدموا على الاتفاق مع الاسرائيليين قبل ان يعبروا بالانتفاضة الفلسطينية العظيمة . ان ما حققه الفلسطينيون من انجازات هائلة فى غمار الانتفاضة ، وما ولدته من احساس بالثقة بالنفس كانت هى الدافع الاهم الذى مكن من جلوسهم على مائدة المفاوضات فى مدريد ، ومكنهم - بعد ذلك - من انجاز اتفاق « غزة اريحا اولا » . حقا ، لقد جاء هذا الاتفاق ضعيفا ومحدودا ، ولكنه - مثل الانتفاضة - كان انجازا فلسطينيا مستقلا ، حققه الفلسطينيون فقط دون وساطة - ولا وصاية - من احد ، وبجهدهم قادرين على التقدم على صعيد الصراع السياسى والحضارى بعد ان اثبتوا ذاتهم على صعيد الصراع المسلح والعنيف . ولاذا كان كل من الطرفين - الفلسطينى ، والاسرائيلى - يضمر نواياه وطموحاته ، والتى قد تكون مختلفة - بل ومتناقضة تماما - لما يضمره الطرف الآخر ، فان العبرة هى فى قدرة كل طرف على تحقيق ما يريده ، ايا كان تواضع النقطة التى يبدأ منها .

وتلك هى حقائق الحياة بلا رتوش ولا اوهام !

د . اسامة الغزالى حرب

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية